اسم السورة القرآنية ومدلولها العام
-البقرة، والعنكبوت نموذجا-

أ. عبد القادر بن عزوز (*)

لقد اختصت كل سورة من سور القرآن الكريم باسم خاص بها، يميزها عن غيرها من سور القرآن. ولقد حاول العلماء الوقوف عند أسرار هذه التسمية، وذلك للربط بين معنى اسم السورة ومضمون آياتها الكريمة.

وتعتبر سورة البقرة من السور التي توقف عندها المفسرون خلال المكان والزمان للبحث في تفسيرها وفي مقاصد ربط أطول سورة في القرآن باسم أحد المخلوقات التي خلقت من أجل خدمة الإنسان، على الرغم من أنَّ السورة تتضمن التشريع للعادات والمعاملات والعقائد، فما الحكمة من أن تختص السورة باسم البقرة دون غيرها من الأحكام والحوادث والقصص، فقصة البقرة تشكل جزء صغيرا بالنظر إلى باقي قصة بني إسرائيل وسيرتهم؟ وهذا ما سنحاول الوقوف عليه من خلال بيان المقاصد العامة بين التسمية **"بالبقرة"** وبيان المقاصد العامة للتشريع، والتي يمكن أن نحصر بعض مقاصدها فيما يلي:

1/ المقصد العقدي:

إن من أهم خصائص الشريعة، دعوة الناس إلى عبادة الله سبحانه وتوحيده التوحيد الخالص، وما قصة البقرة على قلة الآيات التي تضمنها السياق القرآني لها إلا أنها تعلم الإنسان وتنبهه إلى خطورة الشرك بالله، فالإيمان مصلحة والكفر والشرك مفسدة.وإن المجتمع

(*) أستاذ مساعد بكلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر.
وللموضوع هوامش.

الإسرائيلي وبحكم معاشرته للمجتمع المصري الفرعوني والذي كان من عقائده تقديس الماء عموما والنيل خصوصا، بدليل أن فرعون يضفي هذه القداسة والتي عبر عنها القرآن الكريم على لسان فرعون **﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾**[1] فما التعبير عن التحتية إلا لبيان نسبة الماء إلى فرعون وبذلك إضفاء القداسة على قدرة فرعون[2] على إعاشة الناس بحكم الألوهية التي نصب لها نفسه إلا أن هذا الادعاء والتقديس للقائل والمقول فيه، ولقد ظهر أنهما مخلوقان ضعيفان أمام عظمة الخالق سبحانه بدليل تحكم موسى عليه السلام في البحر (الماء) بأن شقه بأمر الله قسمين ليظهر لهم بأنه مؤتمر بأمر الله سبحانه، والثاني وهو فرعون فقد أغرق فيما ادعى من تسييره وتسخيره الماء لسكان مصر بقدرته وقوته.وهكذا كانت بداية التحطيم لهذه المقدسات الإسرائيلية الموروثة عن المجتمع الفرعوني واحد تلو الآخر.

كما قدس المجتمع الفرعوني أدوات الزراعة ووسائلها من محراث وبقر، وإن هذا التقديس منشؤه الحاجة الطبيعية للإنسان إلى الغذاء من جهة وإلى طبيعة الأرض الصحراوية التي كانوا يسكنونها من جهة ثانية[3] وبذلك وبحكم المعاشرة بين المجتمعين من زمن سيدنا يوسف عليه السلام إلى زمن سيدنا موسى وهارون عليهما السلام انتقل حكم التقديس من المجتمع الفرعوني إلى المجتمع الإسرائيلي وإن لم يكن هذا الأمر ظاهرا في سلوكهم كعبادة إلا أنها فكرة أو عقيدة التقديس غرست في نفوسهم بدليل قوله تعالى: **﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾**[4] فالتعبير بالشرب يدل على ترسخ هذه العقيدة في نفوسهم،أي أن حب العجل كان مرسوخا في قلوبهم[5] . وهذا ما

يظهر وبصورة جلية من خلال المساءلة عن صفة البقرة ؟ وعن عمرها ؟ ولونها ؟ وإن كان ظاهره يفيد حالة البخل والشح النفسي لديهم، كما بينه أهل التفسير، إلا أنه يدل في شقه الآخر على المسكوت عنه ،وهو عدم قدرتهم على مواجهة موروثهم العقدي الدفين في نفوسهم من تقديس البقر عموما، والذي اكتسبوه من المجتمع المصري الفرعوني، ومن هنا بدؤوا يتهربون ويبحثون عما يخلصهم من هذا العمل الواجب شرعا بحكم العقيدة الإسلامية التي جاء بها موسى عليه السلام، والذي لم يلق قبولا في نفوسهم. ومن هذا يظهر أن المقصد القرآني من ذبح بقرة واحدة أن سيدنا موسى (عليه السلام) : " قد ذبح برسالته مفهوم عبادة البقر، وذلك المفهوم الذي سرى في عروق تلك الأمة وتنامى في استعداداتهم "[6]

إن السامري لم يخترع للأمة الإسرائيلية عبادة العجل من الفراغ ، وإنما كان وبحكم انتمائه إلى نفس الأمة وعلمه بنفسيتها، أو بعبارة أخرى كان على دراية بعلم نفس الشعوب ، واستنبط هذا الميل واستطاع أن يوظفه وفق هواهم ، ويجد مبررا يجد في نفوسهم قبولا، وهي التخلص من الحلي الآثمة الفرعونية[7] كما جاء في السياق القرآني:﴿**ولكنّا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري**﴾[8]. ومن هنا فإن تسمية السورة بالبقرة يحمل لنا أكثر من دلالة على العقائد الفاسدة والمغروسة في نفس الإنسان والتي لاتفتأ تظهر بمجرد ظهور بواعث تحركها، فالقرآن ينبهنا إلى خطورة هذا الأمر في حياة الأمم عموما والأمة الإسلامية خصوصا.

2/ المقصد التشريعي: إن المتأمل في أسماء السور يجدها لا تشغل إلا حيزا صغيرا من

السورة ولكن إذا نظرنا إليها نظرة مقاصدية يمكنه أن يتوقف عند قاعدة مقاصدية هامة تقررها هذه الآيات اليسيرة من السورة وهي أن "القرآن يبين بهذه الحادثة الجزئية بيانا معجزا، ودستورا كليا ، ودرسا ضروريا يحتاجه كل أحد في كل وقت"[9]. كما أن ربط هذه السورة بهذه الأحداث الجزئية يعبر وبصورة جلية أن هذه الأحداث التاريخية أو القصص للأمم السابقة، كحالة تسمية السورة بالبقرة "إنما هي جزء من دساتير كلية، شاملة يبنى عليها غيرها"[10] وذلك أن أسماء الأمم قد تتغير عبر اختلاف الزمان والمكان، إلا أن المصالح الشرعية والمفاسد لاتتغير لأنها تمس حفظ كلياتها الخمس.

ومن هنا فالقرآن ينبهنا إلى الوقوف على معنى أسم السورة لارتباطها بحياة الأمة الإسلامية بأن لا تقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من مخالفات للشريعة السمحة.

3/ المقصد التربوي:

تؤدي التربية دورا هاما في تنمية روح الشريعة في نفسية الأمم،وتقويم سلوكها نحو أفضل سبل الرقي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي. بأفضل المجتمعات هو ذلك المجتمع الذي يعي سبب وجوده في الحياة ومعنى وظيفته الاستخلافية من خلال الوقوف على مقاصد الشريعة ببيان المصالح والعمل بها، والوقوف على المفاسد واجتنابها.

وللربط بين ما نحن فيه من بحث حول مضمون اسم سورة البقرة ومدلول السورة، وبين المقصد التربوي أو الأخلاقي ،فيتمثل في أن معنى السورة ينبهنا إلى قضية مهمة، والمتمثلة في مسألة التأثر والتأثير بين المجتمعات الإنسانية سواء في شقها الإيجابي أو السلبي كحالة انتقال عدوى تقديس البقر من الأمة الفرعونية إلى الأمة

الإسرائيلية ، والتي قد تأخذ أشكالا أخرى من التقديس على حسب تغير ظروف المكان والزمان، فظاهرة التأثير الاجتماعي بالنسبة للمجتمع المصري على نظيره الإسرائيلي لم تظهر في فترة التعايش بينهما ولكن ما إن وقعت الفرقة بينهما حتى ظهرت في سلوكهم بدليل سؤالهم لموسى أصنافا من الطعام والتي تعود عليها في مصر، أي أنهم لم ينتبهوا إلى الدور التربوي للنبيين موسى وهارون عليهما السلام، بل انغمسوا في طلب الشهوات وتخلوا عن مقصد الرسالة المنوطة بهم **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾** ... الآية[11].

ومن هذا، فإن معنى اسم السورة ومدلولها ينبهان إلى خطورة التعايش غير المتوازن، والذي يكون أحد طرفيه يشعر بضعف في شخصيته أو انتمائه الحضاري، فينبهر أمام الأخر ويذوب فيه.

4/ المقصد الإعلامي:

من المقاصد الشرعية التي يبينها المدلول الاسمي لسورة البقرة، أي المصلحة الشرعية التي يراد تحصيلها عند الأمة، وهي الانتباه إلى الحرب الإعلامية المضادة ضد الدعوات التصحيحية أو التجديدية، ففي أثناء عملية التحول الاجتماعي وفي الكثير من لحظات الضعف واليأس نحو ما تقرره السورة الكريمة من معاناة السفر للمجتمع الإسرائيلي من مصر إلى أرض فلسطين التي وعدوا بدخولها أو كحالة غياب المرشد حالة غياب سيدنا موسى عليه السلام لمناجاة ربه سبحانه فإن الكثير من أفراد الأمة من ذوي النفوس الضعيفة ينساقون وراء الإشاعات والخدع التي يثيرها بعض أفراد الأمة المعارضين لحركة التغيير أو أولئك الذين يريدون أن يحوزوا السبق للحصول على بعض

أنواع الطموح المركوز في نفوسهم، نحو حب قيادة الآخر، والسلطة عليه كحالة السامري والذي تمكن أن يحقق هذا الطموح النفسي في غياب موسى عليه السلام ووجود أسباب مناسبة لهذا العمل في نفوس المجتمع الإسرائيلي.

ومن هنا، فإن مقاصد معنى السورة أن تنبهنا أن قوة الدعاية والخداع قد تكون في بعض الأحيان أقوى من قوة الحق لمدة من الزمن وتحجبه بعدد من السنين أو القرون، وهذا الأمر يخلف آثارا وخيمة على أفراد الأمة وعلى دينها وقيمها وانتمائها الحضاري

وفي الأخير، نخلص إلى أن القرآن الكريم ينبهنا إلى الربط بين معنى اسم السورة ومدلولها العام لنستخلص العبر ونقف على مقاصد التشريع،وترتيب حياتنا وما يقع لنا وفق رتب الضروري والحاجي والتحسيني.

إن من الأهمية لقارئ القرآن الكريم أن ينتبه في قراءته لعنوان السورة وبين مدلولها العام حتى يتمكن من الربط بين المدلول المقاصدي لاسم السورة ولمعناها العام، وإن القارئ لسورة العنكبوت بإمكانه أن يتوقف عند العديد من المقاصد الكلية التي اشتملت عليها السورة الكريمة، إذ اسمها مدخل – أي العنكبوت- لمقاصد شرعية ومصالح عظيمة، والتي يمكن أن نذكر منها:

1/ مقصد التدبر في عظمة الخالق: إن من أهم دلالات اسم سورة العنكبوت أنها ترتبط بكلية الدين التي رعيت من جهة الوجود، إذ الناظر فيها لا محالة سيقف على تحقق هذا المقصد، فالحفاظ عليه باستمراره في حياة الناس، يتحقق بإثبات حقيقته، وكذا ببيان الحقائق الموصلة والمعرفة بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وإن العنكبوت هذا المخلوق

الضعيف والذي ضرب به المثل في القرآن الكريم ما هو إلا مقدمة ووسيلة لمصلحة عظمى، فالإنسان مطالب بالنظر في شكل هذا المخلوق وطريقة تكاثره وعيشه وارتباطه في عيشه بغيره من الكائنات الحية وإلى أنواعه، وإن هذا المخلوق الضعيف يدفع الإنسان إلى التفكير في عظمة الخالق سبحانه، ولهذا نجد أن الكثير من علماء الأحياء في الغرب تخصصوا فقط في دراسته لسنوات عديدة ووقفوا على الكثير من أسرار حياته.

ومن هذا المنطلق فلا غرابة أن يكون اسم السورة، أي العنكبوت هو الوسيلة التي يلج من خلالها قارئ القرآن للوقوف على حقائق الأشياء في الكون والتدرج من الأدنى نحو الأعلى، نحو السماوات والأرض والنجوم وغيرها من العوالم وليقف على دليل العناية الشامل للإنسان.

وإن هذا الدليل، أي ما يترتب من أعمال وخدمات يقدمها هذا العنكبوت للإنسان وإن كانت في الظاهر بعيدة أي دائرة خدمته لو بعيدة نوعا ما إلا أنه لا يخلو مخلوق من خدمة مقدمة للإنسان.

فالناظر العاقل المتدبر لنسيج العنكبوت مثلا وتناسقه وتناسب شكله الهندسي وترتيبه يهتدي إلى مقصد التدبر، وذلك من خلال استفادة هذا الإنسان من الطبيعة عموما ومن العنكبوت خصوصا في التعامل مع الحياة وفي إعطائه مجموعة من الأفكار التي تعينه في حياته أليست شبكة الصياد شبيهة بنسيج العنكبوت؟ وهي المعنى الآخر لتعليم آدم الأسماء، فالتعليم يعني الاستفادة من العلوم المبثوثة في الطبيعة، وبذلك يحفظ الإنسان حياته أو كلية النفس بما يحصل عليه من الطعام؟ كما أن في النظر إلى نسيجه التدبر في عظمة الخالق سبحانه [(1)].

2/ مقصد إثبات صحة النبـــوة: لقد تنـــاولت الســورة الكريمة الحــديث عن بيت العنكبــوت وبينت ضــعفه وعلى أنه أضــعف الـــبيوت[2] على الإطلاق، وهي حقيقة عملية يقرها العلم المعاصـر، وهـذا مما يدعم صحة النبوة الخاتمة ، إذ كيف لهـذا النــبي الأمي صـلى الله عليه وسـلم أن يأتي بهـذه الحقيقة العلمية ونحن نعـــرف ظـــروف المكــان والزمــان اللــذين عـاش فيهما النـبي الخـاتم صــلى الله عليه وســلم ؟ وهكـذا فـإن السـورة تقـرر قاعدة ودستورا في الكـون أن الضـــــعف في حقيقة نفسه قوة، إذ أن وهن بيت العنكبــوت سيصــبح قــوة دامغة لإثبات صـدق النبـوة وصـــحتها عـــبر اختلاف المكـــان والزمـــان كما رد زعمـاء قـريش خـائبين عند غار ثور.

3/ مقصد التربية بالأمثـــال: لا يخفى على أي عاقل أن في ضـــرب المثل جملة من المقاصد والمصالح، فالمثل ما هو إلا وســـيلة لمصـــالح عظيمة للفـرد والجماعــة، فهو كما يحقق العــبرة لســامعه أو قارئه يتعـــدى إلى تعريف الناس بالحقـائق والتسـليم العقلي لها وما ســـــورة العنكبـــوت إلا حكاية لواقع الإنسـان ويقـرب الحقـائق الإيمانية لتتقبلها العقـــول السليمة وترفع الوهم عنها. قــال الفــراء: "وهو مثــال ضــربه الله ســبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضـــــره؟ كما أن بيت العنكبـوت لا يقيها حـرا ولا بــردا"[3]، وبــذلك تصــبح النتيجــــــة، وهي التفكر و المقصد أو المصـــلحة أن يكون المعنى: "أن أوهن ما يعتمد في الــدين دينهم"[4] وأما المفســـــدة الواقعة الاحتمـــال في هــذا المثل فهي أنهم "لم يســـتفيدوا بمن اتخـــذوهم أوليـــاء إلا ضعف"[5].

كما أن وهن بيت العنكبـــوت يمكن أن ينظر إليه من جهة أخـــــــرى والمتمثلة في عـــــــدم الاســـتقرار العــائلي داخل عائلة العنكبــوت، إذ ما يقع

فيها من أمور من أكل أنثى العنكبوت لذكرها إلا في حالة فراره منها، أو ما يقع من أن تلتهم الأبناء والدتهم أو والدهم أو العكس؟[6] وإن هذا الأمر يقاس عليه الحالة النفسية لأهل النفاق، فإنهم وإن كان ظاهرهم الاستقرار على الفكرة والتعاضد فيما بينهم، إلا أن أفكارهم شتى وقلوبهم مختلفة؟ ومن هنا فالناظر إلى بيت العنكبوت يجب عليه أن ينظر إليه من جهة الوهن الحقيقي والمعنوي لمعنى البيت والذي من مستلزماته الاستقرار والتعايش السلمي والتعاون بين أفراده.

4/ مقصد عدم التعجل في الحكم على الأمور: كثيرا ما يتسرع الإنسان كفرد أو جماعة للحكم على الأمور دون روية وتمعن، مما يؤدي به إلى الوصول إلى نتائج خاطئة بناء على ما بناه من مقدمة خاطئة؟ ومن هنا فإن الناظر لبيوت العنكبوت من خلال شكله الخارجي أو الظاهري لا يرى إلا جمال النسيج وهو حقيقة فيه، كما لا يرى إلا ضعف بيته وقابليته للزوال بسرعة؟ ولكن الإنصاف في الحكم على الأشياء يقتضي التعمق بالفكر والنظر قبل الحكم؟ إذ أن هذا البيت الذي انعدمت فيه مواصفات البيوت الأخرى من الوقاية من الحر والبرد كما جاء على لسان القرطبي [7] يوفر لساكنيه أسباب العيش فهذا البيت الذي ضعفت خيوطه يستطيع أن يوقع بمختلف الحشرات لتقع في المصيدة لتصبح فريسة سهلة للعنكبوت.

ومن هنا فوهن البيت أو ضعفه قد يكون مصدر قوة كما هو حال بيت العنكبوت.

والنتيجة أن ما ينسجه أهل النفاق من شبهات حول شخص النبي صلى الله عليه وسلم أو شريعته وإن كان في ظاهره واهيا إلا أنه يمتلك من القوة ما يوقع فيه الكثير من ضعاف العقول والإيمان في شباكه

كما توقع العنكبوت بالصيد في شباكها على الرغم من ضعفه وقوة المصطاد في بعض الأحيان؟ وخاصة عندما يغيب هذا المؤمن عقله ويحكم على الأمور بظواهرها دون الغوص في أعماقها وأبعادها؟ أي دون النظر في نتائجها في المستقبل على الفرد والمجتمع حالة حادثة الإفك مثلا.

وفي الأخير، فإن القارئ لسورة العنكبوت عليه أن يجمع بين التدبر في معنى السورة واسمها حتى يقف على المقاصد العامة للسورة القرآنية وعلى التسمية مقصودة في حد ذاتها، وأن المثال هو أقرب للحقيقة حتى يحرك هذا الإنسان فكره وعقله للوصول إلى الحقائق، وأن لا يؤسس فكره على قواعد واهية ضعيفة من حيث المعنى كبيت العنكبوت.